وجعل الفصاحة غير لازمة البلاغة التي حصر مرجعها في المعاني والبيان، ولم يجعل الفصاحة مرجعا في شيء منهما، وهو في ذلك يتابع عبد القاهر والرازي اللذين نظرا إلى النظم ولم يوليا اللفظ المفرد اهمية كبيرة.

ابن مالك :

واختصر بدر الدين بن مالك (- ٦٨٦هـ) القسم الثالث من «مفتاح العلوم» وتكلم على الفصاحة وأطلق عليها اسم البديع الذي قال عنه «هو معرفة توابع الفصاحة» وعرّف الفصاحة بانها «خلوص الكلام على وجه له توفية بتمام الافهام لمعناه وتبيّن المراد منه»(١). وقسمها إلى معنوية ولفظية، وذكر ما في «مفتاح العلوم» من صفاتهما، ثم قسم المعنوية إلى مختصة بالافهام والتبيين ومختصة بالتزيين والتحسين . وهذه الانواع الثلاثة هي علم البديع عند المتأخرين.

القزويني :

وحينما جاء الخطيب القزويني (- ٧٣٩هـ) وجد الطريق ممهداً فأخذ من علماء البلاغة المتقدمين ورتب بحث الالفاظ ترتيبا علميا خالف فيه السكاكي وبدر الدين، لانه اتخذها مقدمة البلاغة، وفي هذه المقدمة التي كانت كشفا عن معنى الفصاحة والبلاغة وانحصار علم البلاغة في المعاني والبيان – تكلم على صفات الالفاظ وما ينبغي أن تكون عليه. وكان بحثه ابتداءً باتخاذ الفصاحة مقدمة لعلوم البلاغة بعد أن كانت موضوعا تشيع فيه الحياة (٢).

بدأ القزويني مقدمته بقوله : « الناس في تفسير الفصاحة والبلاغة أقوال مختلفة لم أجد – فيما بلغني منها – ما يصلح لتعريفهما به ولا ما يشير إلى الفرق بين كون الموصوف بهما الكلام وكون الموصوف بهما المتكلم ، فالاولى أن تقتصر

---

(١) المصباح ص٧٥.

(٢) ينظر القزويني وشروح التلخيص ص٢٤٩-٢٨٣.

على تلخيص القول فيهما بالاعتبارين » (١). وهذا غير صحيح ، لان البلاغيين اهتموا بهما ووضعوا لهما حدوداً وفرقوا بينهما ، وكانت بحوث الجاحظ وقدامة وأبي هلال وعبد القاهر وابن سنان وابن الاثير من أروع ما كتب وأبدع ما خطه يد بلاغي ناقد ، وما مقدمة القزويني إلا خلاصة هذه الدراسات ، فكيف لم يترك العلماء تعريفا للفصاحة أو البلاغة يمكن الركون اليه ، ولعله في ذلك متأثر بدعوى عبد القاهر الذي يقول : « لم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة وفي بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد بها فأجد بعض ذلك كالرمز والاشارة في خفاء ، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج » (٢) ويقول : « انا لم ترَ العقلاء قد رضوا من أنفسهم في شيء من العلوم أن يحفظوا كلاما للاولين ويتدارسوه ، ويكلم به بعضهم بعضا من غير أن يعرفوا له معنى ويقفوا منه على غرض صحيح ، ويكون عندهم أن يسألوا عن بيان له وتفسير ، الا علم الفصاحة فانك ترى طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم ألفاظا للقدماء وعبارات من غير أن يعرفوا لها معنى أصلا أو يستطيعوا ان يسألوا عنها أن يذكروا لها تفسيراً يصح » (٣).

وهذا صحيح في عهد التأليف الاول وعند عبدالقاهر الذي لم يفرق بين المصطلحين، لانهما عنده يعبر بهما عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا واخبروا السامعين عن الاغراض والمقاصد وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم (٤)، اما القزويني فالامر عنده مختلف ، لان مصطلحات البلاغة استقرت في عهده وأصبح للفصاحة والبلاغة محتوى واضح .

والفصاحة والبلاغة عند القزويني تقع كل واحدة منهما صفة لمعنيين :

الاول : الكلام كما في « قصيدة فصيحة أو بليغة » و « رسالة فصيحة أو بليغة »

(١) الايضاح ص٦.
(٢) دلائل الاعجاز ص٢٨.
(٣) دلائل الاعجاز ص٣٥٠.
(٤) دلائل الاعجاز ص٣٥.